﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين إغواءِ الشَّياطينِ، وطلبِ المعاندين لآياتٍ تعنُّتًا واستكبارًا

لَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولَى أنَّ شَياطينَ الجِنِّ والإنْسِ لا يُقْصِرونَ في الإغْواءِ والإضْلالِ؛ بَيَّنَ في هذه الآيَةِ نَوْعًا مِن أنْواعِ الإغْواءِ والإضْلالِ، وهو أنَّهُم كانوا يَطْلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنَةً ومُعْجِزاتٍ مَخْصوصَةً على سَبيلِ التَّعَنُّتِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾: من الجَبْي بمعنى: جَمْعِ الشَّيْءِ والتَّجَمُّع، يُقالُ: جَبَيْتُ المالَ أجْبيهِ جِبايَةً، وجَبَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ، والحَوْضُ نَفْسُهُ جابيَةٌ، ومن الأصل أُخِذَ "الاجتباءُ: الاصطفاءُ والاختيارُ" (وأصله: أخذٌ وضمٌّ إلى حيِّزٍ)[2].

2) ﴿أَتَّبِعُ﴾: من الاتِّباع، وهو التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعْتُ فُلانًا؛ إذا تَلَوْتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ، والأصْلُ واحِدٌ، غَيْرَ أنَّهُم فرَّقوا بين القَفْوِ واللُّحوقِ، فغَيَّروا البِناءَ أدْنَى تَغْييرٍ، قالَ اللّه: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 85][3].

3) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: مِنَ الوحْي، وهو يَدُلُّ على إلْقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلى غَيْرِكَ، فالوَحْيُ: الإشارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، فهو وحْيٌ كَيْفَ كانَ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 438/15.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جبي).
(3) ابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وحي).

4) ﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع بصيرةٍ، وهي الدَّلالةُ، ولِما في البصرِ مِنَ الرُّؤيةِ والكشفِ؛ جاء "البصيرةُ: نظرُ القلبِ، الفطنةُ"، فهي رؤيةٌ قلبيةٌ، كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]: على معرفة وبيِّنةٍ ويقينٍ، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: 14] هو البصيرُ، كما تقول: أنت حجَّة على نفسك، أي: شاهدٌ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 104] آياتٌ وبيِّناتٌ يُبْصَر بها ويُستَدَلُّ[1].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

بيانُ طلبِ الغاوينَ لآياتٍ تعجيزيَّةٍ خارقَةٍ تحدٍّ وتعنُّتٌ وضلالٌ

بعد أن ذكرَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ أنَّ شياطينَ الجنِّ والإنسِ لا يقصرون في الإغواء والإضلال؛ فقفَّى على ذلك بذكرِ نوعٍ خاصٍّ من هذا الإغواءِ، وهو طلبُهُم آياتٍ معيَّنةً ومعجزاتٍ مخصوصةً تعنُّتًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ عطفِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ على ما قبلَها:

مناسبةُ مضمونِ الآيةِ مع ضلوعِهم في الجهالةِ والغوايةِ

الآيةُ مَعْطوفَةٌ على جُمْلَةِ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199] والمُناسَبَةُ أنَّ مَقالَتَهُم هذه مِن جَهالَتِهِمْ[3]، أي: إنَّ الشَّياطين ليَمدّونهم في الغيِّ، ومن ذلك أنَّهم يحملونهم على أن يطالبوك بالآياتِ المقترَحَةِ، فإذا سألوك إحياءَ ميِّتٍ يكلِّمُهم ونحو ذلك؛ فلم تأتِ به، قالوا لك: هلّا اخترتَ هذا الَّذي سألناك، وأتيتَ به، وأنت رسولُ اللّه بزعمِكَ، وللرَّسولِ معجزةٌ، فهلّا تأتينا بالمعجزةِ الَّتي نطلبها منك![4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 57/7، 99/19، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بصر).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 152/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 236/9.
(4) النّسفيّ، التيّسير في التّفسير: 110/7.

بلاغةُ جملةِ الشَّرطِ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم﴾، والمرادُ مِنها:

تدلُّ جملةُ الشَّرطِ هنا على شدَّةِ تعنُّتِ هؤلاء المشركين مع الرَّسولِ ﷺ كما تشيرُ إلى تسليَةِ اللهِ لهُ، أي: إذا لم تأتهم بآيةٍ مِنَ القرآنِ عند تراخي الوحي، أو بآيةٍ ممّا اقترحوهُ: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾[1].

طلبُ المعجزاتِ مع ما في القرآنِ من آياتٍ قصرُ نظرٍ، وسفاهةُ عقولٍ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دونَ (إنْ):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾، يدلُّ التَّعبيرُ بإذا على الظَّرفيَّةِ المتضمِّنةِ معنى الشَّرطِ، وتحقُّق الوقوع، وهذا المعنى يتَّفقُ وما رويَ أنَّ الوَحْيَ كانَ يَتَأَخَّرُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أحْيانًا فكانَ الكُفّارُ يَقولونَ: هَلّا اجْتَبَيْتَها[2].

الوحيُ تنزَّلَ بأمرِ اللهِ، لا بأهواءِ البشرِ

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَمۡ﴾، ودخولِها على الفعلِ ﴿تَأۡتِهِم﴾:

جاءَ المضارعُ بعد (إذا) الظَّرفيَّةِ منفيًّا بلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، ولم يأتِ هكذا في موضعٍ آخرَ من القرآن الكريم[3]، ودلالتهُ وقوعُ عدمِ الإتيانِ لتأخُّرِ الوحي، أو لأمرٍ آخرَ؛ وذلك لأنَّ (لم) تقلبُ المضارعَ إلى ماضٍ.

من فرائدِ التَّراكيبِ القرآنيَّةِ وقوعُ المضارعِ بعدَ (إذا) الظَّرفيَّةِ منفيًّا بحرف (لم)

لطيفةُ اختيارِ ﴿تَأۡتِهِم﴾، والعدولِ عن (تَجِئْهُم):

الأصلُ لِما يكون مجيئُه بنفسِه أن يعبِّرَ عنه بالمجيء، نحو: جاء فلانٌ، فهو كلامٌ تامٌّ، ولِما يكون مجيئُه بصلةٍ أن يعبِّرَ عنهُ بالإتيان، فيقال: أتى فلانٌ بكذا[4]، والآيةُ هنا من هذا النَّوعِ؛ لأنَّه متعلَّقُ الجارِّ والمجرور بعدهُ، وهو قولهُ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، والمجيءُ: يُستخدَمُ في سياقِ الأمورِ الشّاقَّةِ الصَّعبة الَّتي فيها ثقلٌ، والإتيانُ: يستخدمُ في سياقِ الأمورِ السَّهلةِ، والميسورةِ، أو الَّتي لم تحدث بعدُ[5]، والإتيان: مجيءٌ

الإتيانُ: مجيءٌ بتهيئةٍ أو قوَّةٍ، والمجيءُ فيما شقَّ أو صعب عادةً

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 309/3.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 260/5.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 177/1.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 152.
(5) الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 68/2.

بتهيئةٍ أو قوَّةٍ تؤدّي مؤدّاها[1]، ومن ثمَّ يكون التَّعبيرُ بالإتيانِ من جهةِ كلامِ اللهِ لهُ؛ لأنَّه ينزلُ عليهِ بتهيئةٍ لا دخلَ لهُ بها، وإنَّما ينزلُ عليه بأمرِ ربِّه، سواءٌ أكانت آيةً قرآنيَّةً أم كونيَّةً.

علَّةُ مجيءِ المفعولِ ضميرًا متَّصلًا في: ﴿تَأۡتِهِم﴾:

مجيءِ المفعولِ ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾؛ لاشتهارهِ ووضوحِ أمرهِ، فقد سبقَ الحديثُ عن هؤلاء الكافرين الَّذين يعبدون الأصنام من دونِ اللهِ، ولأنَّ الذِّهن لا يلتفتُ إلى غيرِهم، والمعنى: "وإذا لم تأتِ أيُّها الرَّسولُ هؤلاء المشركين بآيةٍ من القرآن، وتراخى الوحيُ بنزولها، أو بآية ممّا اقترحوهُ عليك من الآيات الكونيَّةِ، إذا لم تفعل ذلك؛ قالوا لكَ بجهالةٍ وسفاهةٍ: لَوْلا اجْتَبَيْتَها"[2]، وهذا محضُ السَّفهِ والطَّيشِ.

لا يتحدَّى اللهُ بطلبٍ ما لم ينزِّلهُ، إلّا كافرٌ جحودٌ، أو غاوٍ لدودٌ

دلالةُ الباءِ في قولهِ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، وأثرُها في المعنى:

والباءُ للمصاحبةِ والملابسةِ والإلصاقِ[3]، وذلك أنَّ إتيانَهُ جاء مصاحبًا لمجيءِ الآية، ومتلبِّسًا بها، وملتصقًا محلَّ قدرتهِ بالآيةِ، وبما اتَّصل به، وقوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بـ﴿تَأۡتِهِم﴾.

حروفُ المعاني ذاتُ أثرٍ في الدَّلالةِ، والباءُ من أبرزِها في هذا المضمارِ

إيثارُ لفظِ (آية) في قولهِ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾:

أوثرَ لفظُ آيةٍ لدلالتِه على الشَّيءِ العجيبِ، ويجوز أن يرادَ بها الآيةُ من آياتِ القرآنِ، يعني: بحديثٍ من القرآن، ونصوصُ القرآن سمّيت آيةً؛ لأنَّها عجبٌ يعجز البشر عن التَّكلُّم بمثلها[4]، وذلك حين أبطأ التَّنزيلُ بمكَّة، قالَ كفّار مكَّة: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ يعني: هلّا ابتدعتَها من تلقاء نفسِكَ يا محمَّدُ لقولِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ

الآيةُ دالَّةٌ على الشَّيءِ العجيبِ، وطلبُها من غيرِ ما مسوِّغٍ أعجبُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أتى) و(جاء).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 461/5.
(3) ردّ كثير من المحقّقين سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق، كما ذكر سيبويه. وجعلوه معنى لا يفارقها، وقد ينجرّ معه معان أخر. ينظر: المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 46.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 100/1.

هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ [يونس: 15][1]، أو المرادُ الآيةُ الكونيَّةُ المعجزة، كإحياء الميّت مثلًا، وهو أنَّهُم كانوا يَطْلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنَةً ومُعْجِزاتٍ مَخْصوصَةً على سَبيلِ التَّعَنُّتِ، كَقَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ [الإسراء: 90]"[2].

نكتةُ مجيءِ جوابِ الشَّرطِ ﴿قَالُواْ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالادِّعاءِ أو التَّعنُّت:

التَّعبيرُ بالعبارةِ (قالوا)؛ إخبارٌ عمّا حدثَ على سبيلِ التَّحقُّق

جيءَ بالفعلِ ﴿قَالُواْ﴾ جوابًا للشَّرطِ دون التَّعبيرِ بالادِّعاء أو التَّعنُّت، فلم يُقل: (تعنَّتوا)؛ ليثبت قولَهم الَّذي قالوه، فيكونُ إخبارًا عمّا حدثَ على سبيلِ التَّحقُّقِ، أو بما سيكون منهم ليكونَ النَّبيُّ ﷺ على بصيرةٍ بهِ؛ فيتهيَّأ لهُ، ويأخذَ أُهْبَتَهُ.

دلالةُ ﴿لَوۡلَآ﴾، وأثرُها في المعنى:

معنى التَّحضيضِ هنا، هو الإنكارُ والتَّعجيزُ الَّذي بدرَ منهم

تدلُّ ﴿لَوۡلَآ﴾ هنا على التَّحضيضِ، فتختصُّ بالفعلِ، نحو: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21]، ويساويها في التَّحضيضِ والاختصاصِ بالأفعال: هلّا، فيَليها الفعلُ ظاهرًا أو مُضْمَرًا[3]، وهي داخلةٌ هنا على الماضي، فتفيدُ التَّوبيخَ واللَّوم على تركِ الفعلِ فيما مضى، والأمرُ بهِ في المستقبلِ، والتَّحضيضُ: هو الطَّلبُ بشدَّة، والمقصودُ به هنا: الإنكارُ والتَّعجيزُ، أي: هلّا اخترتَها واصطفيتَها[4].

إيثارُ الفعلِ ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ ودلالتُهُ:

دلالةُ الاجتباءِ على الاصطفاءِ والاختيارِ، وعلى الجمعِ والاختلاقِ

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، أوثرَ فيه التَّعبيرُ بالفعل ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، لدلالتهِ على الاصطفاءِ والاختيارِ والجمعِ والاختلاقِ،

(1) البلخيّ، تفسير مقاتل بن سليمان: 82/2.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 438/15.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 387/1.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 340/13.

أي: جئتَ بها من عند نفسِكَ، وكذلك هو في اللُّغة، يقالُ: اجتبيتَ الشَّيءَ وارتجلْتَهُ واخترعْتَهُ واختلقْتَهُ؛ إذا جئتَ بهِ من عندِ نفسِكَ[1].

وقد وردَ فيه قولان: أحدهما: هلّا افتعلْتَها من تلقاءِ نفسِكَ، قاله ابن عبّاس، ومجاهدٌ، وقتادة، والسُّديُّ، وابن زيدٍ، والفرّاء، والزَّجاجُ، وابن قتيبةَ في آخرين، وحُكي عن الفرّاءِ أنَّه قال: العربُ تقولُ: اجتبيتَ الكلام، واختلقتَهُ، وارتجلتَهُ؛ إذا افتعلتَهُ من قِبَل نفسِكَ، والثّاني: هلّا طلبتَها لنا قبلَ مسألتِكَ؟ ذكره الماورديُّ، والأوَّلُ أصحُّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي: ليس الأمرُ لي[2].

نكتةُ مخاطبتِهم الرَّسولَ بتاءِ الخطابِ، والعدولِ عن ذكرِ اسمِهِ أو صفتِهِ:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾، نلحظُ مخاطبتهم الرَّسولَ ﷺ بضميرِ المخاطبِ دلالة على سخريَّتهم واستهزائِهم وسوءِ أدبِهم، ولا عَجَبَ أنْ يفعل الكافرونَ ذلك، فكَما يقالُ: "لَيْسَ بَعْدَ الكُفرِ ذَنْبٌ"[3].

يتجلَّى سوءُ الأدبِ مع اللهِ بالكفرِ، ومع الرَّسول بالتَّطاولِ في الخطاب

علَّةُ إيقاعِ الاجتباءِ على ضميرِ الآيةِ، والعدولِ عن تكرارِ النَّكرةِ (آية):

في قوله: ﴿قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ عادَ الضَّميرُ المنصوبُ على (آيَة)، ولو تكرَّرت لأوهمَ خلاف المراد؛ إذ إنَّ المعنى سيصيرُ أنَّه في حال عدمِ إتيانه بالآية الَّتي طلبوها قالوا: هلّا اختلقت آيةً أخرى، على قاعدةِ أنَّ النَّكرة: إذا تكرَّرتْ أو أُعيدتْ؛ كانَ الثّاني غيرَ الأوَّل[4].

عدم إعادةِ النَّكرةِ، يرفعُ الإلباسَ من الأساس

لطيفةُ خطابِ اللهِ رسولَهُ المصطفى بالفعل ﴿قُلْ﴾:

إعلامٌ بأهمّيَّةِ مقولِ القول في إلقامِ الخصم الحجَّةَ، وزيادةِ تثبيتٍ لقلبِ النَّبيِّ ﷺ ووثاقةِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأنَّهُ من عندِ اللهِ تعالى الَّذي أمره بـ(قلْ)، وليس للنَّبيِّ فيه إلّا البلاغُ.

تلقينُهُ القولَ من اللهِ تعالى، زيادةُ تثبيتٍ لفؤادِهِ، ووثاقةٌ لنصِّ الخطابِ

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 121/3.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 183/2.
(3) من كلام العلماء، وليس حديثًا، ومعناه: أنَّ الكفر بالله، والشّرك به سبحانه أعظم الذُّنوب، فلا يُتعجَّب من الكافر إذا أذنب ذنبًا آخر، وليس معناه: أنَّ الكفّار غير مخاطبين بالشّريعة.
(4) ابن الشّجريّ، أمالي ابن الشّجريّ: 545/3.

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

الرِّسالةُ اتِّباعٌ وبلاغٌ، لا يتأتَّى لها إلّا ما أذنَ بهِ اللهُ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، القصرُ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ يكونُ لِما هو ظاهرٌ، ممّا لا ينكره المخاطبُ، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلة نحو: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة: 11]، ويحسنُ وقوعُها في التَّعريضِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرّعد: 19][1]. أي: ينبغي أن تعلموا أنَّني متَّبِعٌ لا مبتدعٌ، وأن يكونَ ذلك من المسلَّماتِ.

إيثارُ الفعلِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ دونَ سواهُ:

دلالةُ فعلِ الاتِّباعِ على كمالِ التَّأسّي والانصياعِ لأمورِ اللهِ

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أوثرَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ لدلالتهِ على كمالِ التَّأسّي والاقتداءِ، وعدمِ المخالفةِ في شيءٍ، فالاتِّباعُ هو لحوقُ الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ (مع رقَّةٍ ولين)[2].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَتَّبِعُ﴾:

دلالةُ فعلِ (أتَّبِعُ) على الاستمرارِ في الاتِّباعِ، والتَّجدُّدِ في الولاءِ للهِ

في قولهِ: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، صيغةُ المضارعِ في (أتَّبع) تدلُّ على الاستمرار في الاتِّباع، دونَ كللٍ أو ملٍ أو سآمةٍ، أو مخالفةٍ، كما تشيرُ إلى التَّجدُّدِ في الاتِّباع، كلَّما نزلتْ آيةٌ، أو أمرٌ من الوحي.

دلالةُ (ما) الموصولةِ والعدولِ عن (الَّذي)، وأثره في المعنى:

الدَّلالةُ على المبالغةِ في اتِّباعِ الوحي، وبيانِ منزلتهِ العظيمةِ

وأمّا (ما)؛ فهي الموصولةُ، ويجوزُ أن تكونَ مصدريَّةً، وهو ظاهرُ كلامِ الزَّجّاج[3]، والأوَّلُ هو الرّاجح الموصولةُ، فهي في قول النَّحويّين بمعنى (الَّذي)، وليس كذلك، وإن وافقت (الَّذي) في أكثرِ أحكامها، فإنَّها مخالفةٌ لها في المعنى، وفي بعضِ الأحكام، أمّا المعنى: فإنَّ (ما) اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهام، حتَّى إنَّها تقعُ على كلِّ شيءٍ، وتقعُ على ما ليسَ بشيءٍ... وكلُّ ما وصلتَ به يجوز أن

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 250/2.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).

(3) قال الزّجاج: "فأعْلَمهم أنّه يتبعُ الوحْي". يُنظر: الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 250/2. فقوله: (الوحي) مصدر ﴿ما يوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

يكونَ صلةَ (الَّذي)، فهي توافقُ (الَّذي) في هذا الحكم، وتخالفُهُ في أنَّها لا تكونُ نعتًا لما قبلَها ولا منعوتة؛ لأنَّ صلتَها تُغنيها عن النَّعت، وأيضًا فلو نُعتت بنعتٍ زائدٍ على الصِّلةِ، لارتفعَ إبهامها، وفي ارتفاعِ الإبهام منها جملة بطلان حقيقتها، وإخراجها عن أصلِ موضوعِها، وتفارقُ (الّذي) أيضًا في امتناعِها في التَّثنية والجمع، وذلك أيضًا لفرطِ إبهامها، فقد وضحَ لك ما بينها وبين (الَّذي) من الفرقِ في المعنى والحكم[1]، ويستنبطُ من إبهام (ما) معنى التَّفخيمِ والتَّهويلِ والتَّعظيم، وللسّياق أثرهُ في الحكم على المعنى المناسب، وعليهِ فإنَّ إيثارَ (ما) للدَّلالةِ على المبالغةِ في اتِّباعِ الوحي، وتعظيمهِ.

سرُّ العدولِ عن الفعلِ (يأتي) إلى الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، يُلاحظ عدولٌ عن الفعلِ (يأتي) إلى الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾، في متن هذه الآيةِ الكريمةِ، وذلك لإثباتِ الوحي، ونفي ما ادَّعوه من اختلاقِ آيةٍ، أو الإتيان بها من قِبَلِ نفْسِه، والمأمورُ بهِ أن يقولَ: "إنَّما أنا متَّبعٌ لا مبتدع، فما يوحيهِ اللّهُ إليَّ من الآيات، أنا أبلِّغُهُ إليكم بدون تغييرٍ أو تبديلٍ"[2].

ما أخبرَ بهِ الرَّسولُ موثوقٌ؛ لأنَّ أمانتَهم حقٌّ، وتبليغُهم يحقٌّ

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ:

في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارع في ﴿يُوحَىٰٓ﴾ على التَّجدُّد والاستمرارِ، وفيهِ إيماءٌ إلى اتِّباعهِ الوحيَ في كلِّ شيءٍ، سواءٌ أكانَ في الحكم الماضي أم الحالي أم اللّاحق ممّا نُسخَ، وممّا لم يُنسخ، كما يشيرُ إلى تواصل اتِّباعه ما دام الوحيُ موصولًا؛ فلا يعتريهِ شيءٌ من السَّهوِ أو الغفلة، فحاله في آخرِ الوحي من اليقظةِ والبصيرةِ والفكرة والعزمِ كحالهِ في أوَّلِه.

دلالةُ المضارعِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، واتِّباعُ النَّبيِّ وحيَ العليِّ الجبّارِ

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 139.
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 161/5.

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيَّ﴾، ومتعلَّقِهِ:

شبهُ الجملةِ تفخيمٌ للوحي، وتشريفٌ للمرسلِ بالوحي

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ في الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿إِلَيَّ﴾ زيادةُ تشريفٍ وخصوصيَّةٍ للنَّبيِّ ﷺ، وفيه تفخيمٌ للوحي المُنَزَّل عليه، ولو حُذِف؛ لفاتَ هذا المعنى، ولأوهمَ إطلاقُ اتِّباعِه لما يوحى، ولو إلى غيره، وهذا فاسدٌ.

فائدةُ قولِهِ: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ ومتعلَّقِه:

تأكيدُ معنى الوحي الحقيقيّ، ودفعِ توهُّمِ غيرِ ذلك

بيانُ مصدرِ الوحي، وأنَّه من قِبَل الله تعالى، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بالفعلِ (يوحَى)، أو متعلِّق بمحذوفٍ حالٍ من الضَّميرِ المستتر في (يوحى)، وفائدةُ ذكرِهِ - حينئذٍ - تأكيدُ معنى الإيحاء الحقيقيِّ المنزَّلِ على الأنبياء (عليهم الصَّلاة والسَّلام).

سرُّ إضافةِ لفظِ (ربّ) إلى ضميرِ المتكلِّم:

النِّسبةُ بالإضافةِ إلى الرَّبِّ شرفٌ جليلٌ، وحملٌ من الأمانةِ ثقيلٌ

في قولِهِ: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ، يناسب الرَّدَّ عليهم في قولهم: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، فمن جملة ربوبيَّتِه أنَّه ما ودعني لنفسي، بل ربّاني على التَّوكُّل عليه، والاعتصامِ بحبلِهِ.

لطيفةُ تقديمِ: ﴿إِلَيَّ﴾ على: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾:

الوحيُ المنزَّلُ أولى وأهمُّ من حيثُ التَّأسيسُ، وذكرهُ مكرَّرٌ من قبيلِ التَّأكيدِ

تقديمُ قولِهِ: ﴿إِلَيَّ﴾ على قوله: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾؛ لأنَّ بيانَ خصيصةِ الوحي المنزَّل عليه أولى وأهمُّ، وهو من قبيل التَّأسيس، وقوله: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ من قبيلِ التَّأكيدِ، والقاعدةُ عند أهلِ العلم: أنَّه إذا دار الكلامُ بين التَّأسيسِ والتَّأكيد، فالتَّأسيسُ أولى؛ لأنَّ التَّأسيسَ يفيدُ معنى جديدًا، والتَّوكيدُ لا يفيدُ غير المعنى الأوَّلِ إلّا أنَّه يقوّيه.

فائدةُ الاستئنافِ بجملةِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ الكريم؛ لأنَّهُ بصائرُ تملأُ القلبَ بنورِ اليقينِ الإيمانيِّ

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، مُسْتَأْنَفَةٌ لابْتِداءِ كَلامٍ في التَّنْوِيهِ بشَأْنِ القرآنِ مُنْقَطِعَةٌ عَنِ المَقولِ لِلانْتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى

غَرَضٍ بمَنْزِلَةِ التَّذْييلِ لِمَجْموعِ أغْراضِ السّورَةِ[1]، أي: إنَّ هذا القرآنَ - الَّذي أوحاهُ اللّهُ إليَّ - بصائرُ وحججٌ من ربِّكم، من يتأمَّلها حقَّ التَّأمُّل؛ يكن بصيرَ العقلِ بما تدلُّ عليه من الحقِّ، فهي أدلُّ عليه ممّا تطلبون من الآيات الكونيَّةِ[2].

لطيفةُ تلوينِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

يحتملُ أن يكونَ الخطابُ للمؤمنين، فيكون تلوينًا للخطابِ السّابق؛ حيثُ الرَّدُّ على الكافرين الَّذين تعنَّتوا مع الرَّسول ﷺ في طلبِ الآياتِ، والغرضُ منه هو الإعراض صفحًا عن الكافرين، وعدمُ الاعتناءِ بقولهم، وبيانُ قدرِ المؤمنين بهذا الكتابِ الكريم. كما يحتملُ أن يكونَ متَّصلًا بما قبلَهُ "منْ تَمامِ القَوْلِ المَأْمورِ بأنْ يُجيبَهُم به، فيَكونُ الخِطابُ لِلْمُشْرِكينَ، ثُمَّ وقَعَ التَّخَلُّصُ لِذِكْرِ المُؤْمِنينَ بقَوْلِه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾"[3].

ضرورةُ الإعراضِ عن الكافرينَ، وعدمِ الاعتناءِ بأقاويلِهم الباطلةِ

دلالةُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

المشارُ إليهِ هو القرآنُ الكريم، ويدخلُ فيه ما نزلَ في هذه السّورةِ الكريمة، والإشارةُ إلى القرآن بلفظِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يلمحُ بها إلى التَّشريف والتَّعظيمِ من جهةٍ، وإلى المضمون الَّذي به شرفَ القرآنُ وسمًا ومقامًا ومضمونًا من جهةٍ أخرى، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى القرآن الكريم المدلولِ عليه بما يوحى إلى النَّبيِّ ﷺ، باعتبارهِ بمنزلةِ البصائرِ للقلوب، بها تُبصِرُ الحقَّ وتدرك الصَّوابَ[4].

القرآنُ بصائرُ للاستبصارِ بهِ في جميعِ المطالبِ الإلهيَّةِ، والمقاصدِ الإنسانيَّةِ

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ إشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

إيثارُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ دون (هذه) أو (تلك)؛ لأنَّه للمفردِ المذكَّرِ القريب، وهو قريبٌ لمن أنارَ اللّهُ دربَهُ، وشرح صدرَهُ، وعلم أنَّ

الإشارةُ للقريبِ إشارةٌ إلى إفرادِ الطَّريقِ ووضوحهِ وعدمِ الالتباسِ فيهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/9.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 153/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/9.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 237/9.

القرآنَ من عندِ اللهِ تعالى، وإفرادُ الإشارةِ تتناسبُ وإفرادَ الطَّريق ووضوحَه وعدمَ الالتباس فيه.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾ ودلالتُهُ:

آياتُ اللهِ توجِبُ البَصائِرَ لِمَنْ عَرَفَها، ووَقَفَ على حَقائِقِها

أوثرَ لفظُ ﴿بَصَآئِرُ﴾ جَمْعُ بصيرةٍ؛ لأنَّ البَصَرَ كما كان اسْمًا لِلْإدْراكِ التّامِّ الكامِلِ الحاصِلِ بالعَيْنِ الَّتي في الرَّأْسِ، فالبَصيرَةُ اسْمٌ لِلْإدْراكِ التّامِّ الحاصِلِ في القَلْبِ، وهيَ في أنْفُسِها لَيْسَتْ بَصائِرَ إلّا أنَّها لِقوَّتِها وجَلالَتِها توجِبُ البَصائِرَ لِمَنْ عَرَفَها، ووَقَفَ على حَقائِقِها، فلَمّا كانَتْ هذه الآياتُ أسْبابًا لِحُصولِ البَصائِرِ[1]، فالكلامُ خارجٌ مخرجَ التَّشبيهِ البليغِ... أو فيهِ مجازٌ مرسلٌ، حيث أطلقَ المسبَّبَ على السَّببِ، وجوِّز أن تكونَ البصائرُ مستعارةً لإرشادِ القرآنِ الخلقَ إلى إدراكِ الحقائقِ[2].

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾ وإفرادِ لفظي (هدى ورحمة):

الهدَى والرَّحمةُ جنسان عامّان، يشملانِ أنْواعَ البَصائِرِ القرآنيَّةِ

وإنَّما جَمعَ (البَصائِرَ)؛ لأنَّ للقُرْآنِ أنْواعًا مِنَ الهُدَى على حَسَبِ النَّواحي الَّتي يَهْدي إلَيْها، مِن تَنْويرِ العَقْلِ في إصْلاحِ الاعْتِقادِ، وتَسْديدِ الفَهْمِ في الدّينِ، ووَضْعِ القَوانينِ لِلْمُعامَلاتِ والمُعاشَرَةِ بين النّاسِ، والدَّلالَةِ على طُرُقِ النَّجاحِ والنَّجاةِ في الدُّنْيا، والتَّحْذيرِ مِن مَهاوي الخُسْرانِ، وأفْرَدَ الهُدَى والرَّحْمَةَ؛ لأنَّهُما جِنْسانِ عامّانِ يَشْمَلانِ أنْواعَ البَصائِرِ؛ فالهُدَى يُقارِنُ البَصائِرَ، والرَّحْمَةُ غايَةٌ لِلْبَصائِرِ، والمُرادُ بالرَّحْمَةِ ما يَشْمَلُ رَحْمَةَ الدُّنْيا: وهيَ اسْتِقامَةُ أحْوالِ الجَماعَةِ وانْتِظامُ المَدَنيَّةِ، ورَحْمَةَ الآخِرَةِ: وهيَ الفَوْزُ بالنَّعيمِ الدّائِمِ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النَّحل: 97][3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 104/13.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 140/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

دلالةُ ﴿مِن﴾ وفائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾:

و"مِن" لابتداءِ الغايةِ مجازًا، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لبصائر، والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضميرِ المخاطبين لإظهارِ كمال اللُّطف بهم[1].

كـلُّ هـدايـةٍ من اللهِ، فهي خيرٌ ورحمةٌ لعبادِهِ

نكتةُ تلوينِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿رَّبِّيٓ﴾:

قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيٓ ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، نلاحظُ أنَّهُ لمّا كان الوحيُ إليه من إنعامِ اللهِ عليه؛ أُضيفَ الرَّبُّ إليه، فقال: ﴿أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيٓ﴾، ولما كانوا أحوجَ ما يكونون إلى لطفِ اللهِ بهم؛ ليستبصروا بهذا الوحي أضيفَ الرَّبُّ إليهم، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

البشرُ في حاجةٍ إلى فواضلِ الرُّبوبيَّةِ، وإلى ألطافِها الخفيَّةِ

دلالةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ على قوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾:

وعطفَ قولَهُ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ على قوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ لبيان ما بعد الاستبصارِ من الحثِّ على العملِ، ﴿وَهُدًى﴾ رُشْدٌ وبَيانٌ ورَحْمَةٌ" أي: ونعمة[2]، وهو يقول لهم: "إنَّ هذا القرآنَ - الَّذي أوحاه اللّه إليَّ - بصائرُ وحججٌ من ربِّكم، من يتأمَّلُها حقَّ التَّأمُّل؛ يكن بصير العقل بما تدلُّ عليه من الحقِّ، فهي أدلُّ عليه ممّا تطلبون من الآيات الكونيَّة"[3]، وفي ذلك كمالُ الهدى، وعمومُ الرَّحمةِ، لو أنَّكم كنتم تعقلون.

مـن أبـصـرَ الـحـقـائـقَ؛ استـبـانَ لـه الـهُدى، ونالتْهُ رحمةُ اللهِ على المدى

مجيءُ قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بعد لفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾:

لمّا كانَ القرآنُ منهاجًا للناس جميعًا؛ جاء قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ قيدًا لقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ فهو عامٌّ مطلقٌ، يتناسب وعمومَ ربوبيَّتِهِ تعالى، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاصٌّ بأهل الإيمان،

تقييدُ (البصائر) لانتفاعِ كلِّ الخلقِ، وإطلاقُ (هدى ورحمة)؛ لتخصيصِهما بالمؤمنينَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 234/4.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 353/7.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 153/9.

ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57][1].

أسلوبُ التَّرقّي في ذكرِ (بصائر) ثمَّ (هدى) ثمَّ (رحمة)، وسرُّ التَّرتيبِ:

القرآنُ بصائرُ للسّابقين، وهُدًى للمُستدلّين، ورحمةٌ للمؤمنين

وهنا لطيفةٌ، وهي الفرقُ بين هذه المراتبِ الثَّلاثِ، وذلك أنَّ النّاس متفاوتون في درجات العلوم، فمنهم من بلغَ الغايةَ في علم التَّوحيد، حتَّى صارَ كالمشاهِد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم من بلغَ درجةَ الاستدلالِ والنَّظر، وهم أصحابُ علمِ اليقين، ومنهم المسلِّم والمستسلم، وهم عامَّةُ المؤمنين، وهم أصحابُ حقِّ اليقين؛ فالقرآنُ في حقِّ الأوَّلين - وهم السّابقون بصائرُ، وفي حقِّ القسم الثّاني، وهم المستدلِّون هدًى، وفي حقِّ القسم الثّالثِ، وهم عامَّة المؤمنين رحمةٌ[2].

سرُّ اختصاصِ المؤمنين بالذِّكر في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

المؤمنونَ هُمُ الَّذينَ يَستَبصِرونَ، ويَنتَفِعونَ بالوَحيِ

قولهُ: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خَصَّ المُؤمِنينَ؛ لِأنَّهُمُ الَّذينَ يَستَبصِرونَ، وهُمُ الَّذينَ يَنتَفِعونَ بالوَحيِ، يَتَّبِعونَ ما أمَرَ به فيهِ، ويَجتَنِبونَ ما يُنهَوْنَ عنه فيهِ، ويُؤمِنونَ بما تَضَمَّنَهُ[3]. ولَمّا كانَتْ هذه الفِرَقُ الثَّلاثُ مِنَ المُؤمِنينَ؛ قالَ: لِقَومٍ يُؤمِنونَ، وفيهِ تَكميلٌ وبَعضُ تَلخيصٍ[4].

فائدةُ التَّنازعِ في متعلَّقِ الجارِّ والمجرورِ:

تَعريضٌ بأنَّ غَيْرَ المُؤمِنينَ لَيسوا أهْلًا لِلانتِفاعِ به

الجار والمجرور في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ "يتنازعه ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿وَهُدٗى﴾ و﴿وَرَحۡمَةٞ﴾؛ لِأنَّهُ إمّا يَنتَفِعُ به المُؤمِنونَ، فالمعنى: هذا بَصائِرُ لَكُم ولِلمُؤمِنينَ، وهُدىً ورَحمَةٌ لِقَومٍ يُؤمِنونَ خاصَّةً؛ إذْ لَم يَهتَدوا، وهو تَعريضٌ بأنَّ غَيْرَ المُؤمِنينَ لَيسوا أهْلًا لِلانتِفاعِ به، وأنَّهُم لَهَوْا عَنْ هَدْيِه بطَلَبِ خوارق العادات"[5].

(1) ابن القيّم، إغاثة اللهفان: 169/2.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 286/2.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 261/5.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 261/5.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (قوم) في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ هـدايـةَ الـقـرآنِ ورحـمـتَـهُ قـيـامٌ بحقِّه، ووُقـوفٌ عند حدودِه

وذكرَ لفظَ (قوم)؛ لِأنَّ ذِكْرَها يَقْتَضي أنَّ هدايةَ القرآنِ ورحمتِه لن تتَمَكَّنَ منهم حتَّى يسْتَوي فيهِ جَميعُهُم، ويصيرَ مِن خَصائِص قَوْميَّتِهم، وفيه إشارةٌ إلى الحضِّ على التَّوافق والتَّعاون والتَّرابط؛ ممّا يدعوهم إلى استثمار هذه المراتبِ السّابقِ ذكرُها من الاستبصارِ بالقرآنِ والهدايةِ والاسترحامِ به، "فالمُرادُ بقَوْمٍ يُؤْمِنونَ: قَوْمٌ الإيمانُ شَأْنُهُم وسَجيَّتُهُم، وللإشارَةِ إلى معنى تَمَكُّنِ الإيمانِ مِن نُفوسِهِمْ؛ أُجْرِيَ وصْفُ الإيمانِ على كَلِمَةِ (قَوْمٍ)؛ ليُفيدَ أنَّ كَوْنَهُم مُؤْمِنينَ هو مِن مُقَوِّماتِ قَوْميَّتِهِمْ"[1]، وكلمة (قوم) إذا جاءت مع كلمة النِّساء، فالمرادُ بها الرِّجالُ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحُجُرات: 11]، وإذا جاءت من غير لفظ النِّساءِ شملتِ الرِّجالَ والنِّساءَ، كما في الآية الكريمة[2]، وفي اصطفاءِ كلمةِ (قوم) هنا معنى لطيفٌ؛ فهذه الكلمةُ تفيدُ معنى من يقوم للشَّيء، ويقوم به، أي: من يجتهد في الوفاءِ بحقِّ ما يطلب منه، وفي هذا تعريضٌ بهم أنَّهم لم يكونوا قوّامين بما جاءهم به رسول الله ﷺ فهدَّدهم بأن يتأتَّى بغيرِهم يقومون بما لم يقوموا به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/65.

(2) في ذلك خلاف بين العلماء؛ فقال قوم: كلمة (قوم) تخصُّ الرّجال دون النّساء، واستدلّوا بهذه الآية، وبقول زهير:

وما أدري ولست إخالُ أدري *** أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

ينظر: الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

والصّحيح: أنّها تعمُّ الرّجال والنّساء، كما في النّداءات النّبويّة بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ من أنبياء الله السّابقين، فالخطاب فيها للرّجال والنّساء، والنّساء شقائق الرّجال، ولكن هنا عندما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ دخل الرّجال والنّساء، ثمّ خصّ تعالى النّساء بالذّكر لأنّ الهزء يكون مِنَ النّساء أكثر، فلا يكاد يُفلِت مِنَ النّساء أحدٌ من الهزء، الا من رحم ربُّك، ففي قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: 11] تعميم، وفي قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، تخصيص، وكأنّ النّساء خوطبن مرّتين؛ لأنَّ ذلك من لوازم مجالسهنّ ولوازم أحاديثهنّ.

إيثارُ صفةِ الإيمانِ والتَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ أصلُ صلاحِ العملِ وقبولِه، وصيغةُ المضارعِ تجدُّدٌ واستمرارٌ

وأوثرَ وصفُ الإيمانِ، لأنَّهُ الأصلُ الَّذي ينبني عليه صلاحُ العملِ وقبولُهُ، وبهِ يستقبلُ القلبُ بصائرَ القرآنِ، وينقادُ بيُسْرٍ على صراطٍ مستقيمٍ. وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرار، فهم يرتقون بهذا الكتابِ في مدارجِ السّالكين، ومعارج المّتقين، ومنازل المحسنين، كما بُشِّروا بذلك الرُّقيِّ في الآخرةِ حين «يُقالُ لِقارِئ القرآنِ: اقْرَأْ وارْقَ ورَتِّلْ كَما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيا، فإنَّ مَنْزِلَتَكَ في آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُها»[1].

توافقُ الفاصلةِ، وأثرُها الصَّوتيُّ والدَّلاليُّ:

توحي الفاصلةُ بالهدوءِ والهدهدةِ النَّفسيَّة، والتَّخفيفِ من الضَّغطِ والتَّوتُّر

نلحظُ توافقَ الفاصلةِ في قولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ لما قبلَها وما بعدَها من الفواصلِ، وذلك يُحْدِثُ انسجامًا صوتيًّا، يستولي على القلوبِ، ويستقطبُ العقولَ، ويأسرُ الأسماعَ، وهي متَّفقةٌ - كذلك - مع آياتِها في قرارِ الصَّوت اتِّفاقًا عجيبًا، يلائِمُ نوعَ الصَّوت والوجه الَّذي يُساق عليه، فهذهِ الفواصلُ وختامها يوافقُ ما كان عليه العربُ من اختيارِ حروف اللّين أو المدِّ للانتهاء بمقاطع كلامِهم، أو حرفَي النّون والميم، فالنّون المسبوقةُ بصوتٍ ممدود، الموقوف عليها - توحي بهذا الجوِّ من الهدوءِ والهدهدةِ[2] النَّفسيَّةِ، والتَّخْفيف من حدَّة الضَّغط والتَّوَتُّرِ، وهذا جليٌّ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 196] إلى ختامِ السّورةِ الكريمة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآيةُ والمعجزةُ:

المعجزةُ هي ما خرقَ العادةَ من قولٍ أو فعل، إذا وافقَ دعوى

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1464)، وابن حبّان في صحيحه، برقم: (766)، والحاكم في المستدرك: 739/1.

(2) الهدهدة: تحريك الأمّ ولدَها ليَنام.

الرِّسالة، وقارنها، وطابقها على جهة التَّحدّي ابتداء، بحيث لا يقدر أحدٌ عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربُها. قال ابن تيميَّة[1]: "الآياتُ والبراهين الدّالَّةُ على نبوَّةِ نبيِّنا محمَّد ﷺ كثيرة متنوِّعةٌ، وهي أكثرُ وأعظمُ من آياتِ غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ"، قال: "ويسمّيها النُّظّارُ معجزاتٍ، وتسمَّى دلائلَ النُّبوَّة، وأعلامَ النُّبوَّة ونحو ذلك"، وقال: "وهذه الألفاظُ إذا سمّيت بها آيات الأنبياء؛ كانت أدلَّ على المقصودِ من لفظِ المعجزات؛ ولهذا لم يكن لفظُ المعجزات موجودًا في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، وإنَّما فيهِ لفظُ الآيةِ والبيِّنة والبرهان"[2].

الآيـةُ الـخارقـةُ الدّالَّةُ على صدقِ النُّبوَّةِ، والمعجزةُ مـا قـصـد بـها التَّحدّي

الاجتباءُ والاختيارُ والاصطفاءُ:

اختيارُكَ لشَيْءٍ أخذُكَ خيرَ ما فيهِ في الحَقيقَة، أو خَيره عنْدك، والاصطفاءُ أخْذُ ما يصفو منه، ثمَّ كثرَ حَتَّى اسْتُعْمل أحدُهما مَوضِعَ الآخرِ، واسْتُعْمل الاصطفاءُ في ما لا صفو لَهُ على الحَقيقَة[3]، والاصطفاءُ: الاختيارُ من بين أشياءَ متشابهةٍ؛ كأن تختار قلمًا من بين مجموعةِ أقلامٍ، والاختيارُ يكون من بين أشياء غيرِ متشابهةٍ، كأن تختار قلمًا من بين ورقٍ، وكتابٍ، وقلمٍ، فالاصطفاءُ عمليَّةٌ أخصُّ من مجرَّدِ الاختيارِ، والاصطفاءُ يحدثُ بعد الاختيارِ، والاصطفاءُ يكونُ لأمرٍ، أو فعل متميِّزٍ فريدٍ في نوعهِ، مثل تكليمِ اللّهِ ربِّ العالمين لموسى لأوَّلِ مرَّةٍ، فالاصطفاءُ أعلى درجةً من الاختيار، والاجتباءُ يشبهُ الاصطفاءَ، ولكن يأتي في سياقِ الأفرادِ وليس في الأفعالِ كما هو الحالُ في الاصطفاءِ[4]، فالاجتباءُ في الأصلِ الاختيارُ، وأريدَ به هنا الاختلاقُ والافتعال، يقال: اختارَ فلانٌ الشَّيءَ؛ إذا اختلقَهُ واستحدَثه.

الاجـتـبـاءُ والاخـتـيـارُ والاصـطـفـاءُ، لكلٍّ منها دلالةٌ مرتبطةٌ بسياقها والـقـرائـن المصاحبة

(1) ابن تيميّة، الجواب الصّحيح: 412/5.
(2) السّفّارينيّ، لوامع الأنوار البهيّة: 290/2.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(4) الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 67/3.

الاتِّباعُ والتَّقليدُ:

الاتِّباعُ: اقتفاءُ هدي اللهِ على بصيرةٍ وحجَّةٍ، والتَّقليدُ: قبولُ الاتِّباعِ بلا حجَّةٍ

الاتِّباعُ يدلُّ على لحوقِ الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ، مع رقَّةٍ ولين؛ ولا يكونُ في الإسلامِ إلا بدليلٍ، يقال: غُصْنٌ متتابع: إذا كان مستويًا لا غِلْظة فيه[1]. فالاتِّباعُ هو اتِّباعُ الدَّليلِ والعمل بالوحي، ولا شكَّ في أنَّ هذا اللُّحوقَ والسَّيرَ في أثر الشَّرْع يخلو من الشَّرِّ، ويحلو بالرِّفق واللِّين؛ إذ إنَّه من لطيفٍ خبيرٍ، فقد سمَّى اللهُ العملَ بالوحي اتِّباعًا في مواضعَ كثيرةٍ، منها قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: 106]، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 3]. فمحلُّ الاتِّباع إذًا هو كلُّ حكمٍ ظهرَ دليلُهُ من الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع، أمّا محلُّ التَّقليد فهو محلُّ الاجتهاد، فلا اجتهادَ ولا تقليدَ في نصوصِ الوحي الصَّحيحةِ الواضحة الدَّلالة، السّالمة من المعارض، ولا يشترطُ في الاتِّباع والعمل بالوحي سوى العلمِ بما يعملُ، ولا يتوقَّف ذلك على تحصيلِ شروطِ الاجتهاد[2].

وأمّا التَّقليدُ؛ فليس في القرآن من مادَّةٍ (قلد) إلّا لفظتا (القلائد) و(مقاليد)؛ وهما مأخوذتان من القَلْد: السِّوارُ المفتولُ من فضَّةٍ، والقلادة، وقَلَد الحديدةَ: رقَّقَها ولواها على شيءٍ أو على مثلها، والتَّقليدُ فيه معنى الحَوْز والحَبْس بشدَّة[3]، وأمّا التَّقليدُ بمعنى: قبول قَول الآخرين من غيرِ حجَّة[4]، فلم يرد لفظُه في القرآن، وإنَّما جاء معناه في موضع الذَّمِّ والنَّهي، بل جاء التَّشْبيه البليغ لأولئك الَّذين يسيرون خلفَ كلِّ ناعقٍ، فقال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(2) ابن القيّم، إعلام الموقّعين: 19/2، 201، والشّوكانيّ، إرشاد الفحول، ص: 881.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلد).
(4) قِوام السُّنّة، الحجّة في بيان المحجّة: 119/2.

عُمْىٌ﴾ [البقرة: 171]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: 104].

فالتَّقليدُ الأعمى والتَّعصُّب يؤدّيان إلى مهاوي الرَّدى، ويقودانِ صاحبهما إلى مسالكِ الغِواية والضَّلال، ويصدّان عن اتِّباع النّور والهدى، فتكونُ النَّتيجةُ تخبُّطًا وانتكاسًا في الدُّنيا، وهلاكًا وخسرانًا في الآخرةِ[1].

(1) حمد الحريقيّ، التوحيد وأثره في حياة المسلم، ص: 83.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»